

The popular proverb between depicting experience and the frameworks of criticism

Dr. Omar Mahmoud Assi

An-Najah National University | Palestine

Received:
25/09/2024

Revised:
13/10/2024

Accepted:
22/10/2024

Published:
30/12/2024

* Corresponding author:
oassi600@gmail.com

Citation: Assi, O. M. (2024). The popular proverb between depicting experience and the frameworks of criticism. *Journal of Arabic Language Sciences and Literature*, 3(5), 1 – 11. <https://doi.org/10.26389/AJSRP.C280924>

2024 © AISRP • Arab Institute of Sciences & Research Publishing (AISRP), Palestine, all rights reserved.

• Open Access



This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) [license](https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/)

Abstract: This research focuses on studying the various contextual factors that contribute to the formation of proverbs, with the unconscious mind being at the forefront, encompassing all aspects of psychological life. Therefore, studying the unconscious enables us to interpret all psychological phenomena that constitute a significant part of the proverbs. A proverb does not merely reflect the social experience that encapsulates an engaging folk story; rather, it harbors a deep psychological system shaped by the unconscious mind emerging from various contextual factors. The proverb expresses psychological truths and natures, and its value lies in its expression of the latent aspects of the psyche that society is unaware of. This requires addressing concepts related to the study, the most prominent of which are: the folk proverb, individual unconscious, collective unconscious. It also examines the process of folk proverbs and the methods of their transmission and preservation, utilizing the descriptive-analytical method alongside the psychological method. The research includes some practical examples by referring to some Palestinian folk proverbs. It is organized into three sections, preceded by an introduction. The first section focuses on defining the most important terms related to the study, while the second gives special attention to the unconscious to clarify its impact on shaping the content of proverbs and imposing them on consciousness. The third section examines the evolution of folk proverbs and the methods of their transmission and preservation. These sections are concluded with a conclusion that summarizes the most important findings and recommendations reached.

Keywords: proverb, culture, unconscious, subconscious.

المثل الشعبي بين تصوير التجربة وأنساق النقد

الدكتور / عمر محمود عاصي

جامعة النجاح الوطنية | فلسطين

المستخلص: يهضُ هذا البحث في دراسة العوامل السياقية المختلفة التي تسهم في تشكّل مادة المثل الشعبي، ويقع في مقدمتها للاشعور الذي يشمل جميع جوانب الحياة النفسية، من ثمّ فإنّ دراسة الاشعور تمكّنتنا من تفسير جميع الظواهر النفسية التي تشكل جزءاً كبيراً من مادة الأمثال الشعبية، فالمثل الشعبي لا يقف عند حدود التجربة الاجتماعية التي تختزل قصة شعبية مائعة، بل تضمّر في أغوارها نسقا نفسيا عميقا، شكّله الاشعور المنبثق عن عوامل سياقية مختلفة، فالمثل يعبر عن حقائق وطبائع نفسية، تتمثل قيمته في تعبيرها عن كوامن النفس التي لا يشعر المجتمع بوجودها. ويقتضي ذلك معالجة مفاهيم متعلقة بالدراسة أبرزها: المثل الشعبي، الاشعور الفردي، الاشعور الجمعي، كما يبحث في سيرورة المثل الشعبي وطرق تناقله وحفظه، مستعينا على ذلك بالمنهج الوصفي التحليلي إلى جانب المنهج النفسي، وقد تخلل البحث بعض الأمثلة التطبيقية من خلال الرجوع إلى بعض الأمثال الشعبية الفلسطينية، وتنتظم في ثلاثة مباحث، يتصدّرها مقدمة؛ وقد عُني المبحث الأول بالوقوف عند تعريف أهمّ المصطلحات المتعلقة بالدراسة، وأمّا الثاني فقد أوّلى الاشعور عنايةً خاصّةً؛ ليجلّي أثره في تشكيل مادة المثل وفرضها على الوعي، وأمّا الثالث فبحث في سيرورة المثل الشعبي وطرق تناقله وحفظه؛، ثمّ تُدوّل هذه الفصول بخاتمة تقيد أهمّ النتائج والتوصيات التي توصّلت إليها. الكلمات المفتاحية: المثل الشعبي، الثقافة، اللاوعي، الاشعور.

مقدمة

تعدُّ الأمثال الشعبية واحدة من أقدم الأشكال الفنيّة التي تحمل جملة من الدلالات الإنسانيّة التي تعكس إرث وثقافة المجتمعات، بسبب توغُّلها في معظم جوانب حياتها، وقد ساعدها في هذا التوغُّل الاستقبال الجماهيري الواسع لها؛ فهي تحظى بالاهتمام والقبول، كما تعدُّ عنصراً رئيساً من عناصر الثقافة الشعبيّة؛ فهي مرآة تعكس طبائع المجتمعات ومعتقداتها، إذ تتوغل في جليّ مناحي حياتهم وهي من جانب آخر تمثل أنموذجاً يلخّص تجارب الآباء يُقنّدى به في مختلف المواقف.

إنّ المثل الشعبي يمثل أحد أبرز الموروثات الثقافيّة التي تحمل في أغوارها أنساقاً مختلفة تسيطر على رؤية المجتمع للحياة، أنتجته الذاكرة الجمعيّة وحملته الأجيال المتعاقبة شفاهياً ما أدّى إلى تعدُّد روايتها ومجهوليّة مؤلفها، ولدور الذي يقوم به المثل الشعبي في نقل تجارب الماضي بما يحمله من حقائق غُيّب كثيرٌ منها عن المتلقي بسبب تطور المصطلح واعتماده الرمز بشكل ملحوظ، تحاول الدراسة الكشف عن أسباب تجلي تلك الثقافة في المثل الشعبي، مستعينةً بالمنهج الوصفي التحليلي.

إنّ واحدةً من أهمّ المنتجات الثقافيّة التي يلعب فيها اللاشعور دوراً رئيساً في تشكيلها هي الأمثال الشعبيّة؛ فهي المرآة التي تسجّل التحولات التي يمرُّ بها الفرد، كما تُمثّل ترجمةً دقيقةً لدراسة بنية ومكوّنات العقل الفردي وما يخبّئها في اللاشعور؛ وبذلك تقدّم لنا ملخصاً كاملاً عن تجارب الفرد المجتمعيّة، ومن أبرز السمات التي ميزت المثل وساعدت في انتشاره وتناقله عبر الأجيال؛ "أربع خصال اجتمعت فيه ولا تجتمع في غيره من الكلام، وهي: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه، وجودة الكناية؛ فهو آية البلاغة، وقد كان لهذه السمات سهمة واضحة في انتشار المثل وشيوع استعماله، ومن الأمور التي تساهم في انتشار الأمثال وشيوعها طريقة توظيف المثل؛ فهو يُقال في مناسبة ثمّ يوظّف في مناسبة مماثلة لها، وهذا ما أكسبه سمة التداول يتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل.

مشكلة الدراسة

إنّ الناظر في الدراسات التي تناولت المثل الشعبي الفلسطيني يمكن أن يهتدي إلى بعض الأبحاث، بيد أنّ موضوع الدراسة " المثل الشعبي بين تصوير التجربة وأنساق النقد" لم يُكتب فيه -على حدّ علم الباحث- من قبّل؛ وهذه الدراسة تحاور أثر اللاشعور في تشكل مادة الأمثال الشعبية، وأبرز صور حفظ المثل وطرق سيرورته؛ فالمثل يجمع في تركيبه البسيط كماً معرفياً وإراثياً ثقافياً واسعاً يحتاج إلى أدوات تحليليّة غير بسيطة؛ فبالإضافة إلى القدرة على تعقّب المادة الثقافيّة في الأمثال هو بحاجة إلى الإلمام بأدوات المنهج الوصفي التحليلي.

أسئلة الدراسة:

- 1- ما المقصود باللاشعور، وما هي أبرز أنواعه؟
- 2- هل يقف المثل الشعبي عند حدود التجربة، أم أنّ هناك مسوغات ثقافيّة راسخة في اللاوعي الثقافي تستدعي استحضاره؟
- 3- ما المقصود بـ"اللاوعي الفردي"، وهل له سهمة في ضبط دلالة الأمثال؟
- 4- هل يمكن لتركيب لغوي بسيط أن يحمل في أغواره روايب ثقافيّة ترجع أصولها إلى حقب زمنية منصرمة، تحمل دلالات اجتماعية تفصح عن صور ثقافية قارّة في اللاوعي الثقافي الفلسطيني؟.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى فهم اللاشعور ودوره في تشكيل مادة الأمثال الشعبية وهو جانب مهمّ لم يلق حظاً كافياً من الدراسة، كما تقف عند تعريف اللاوعي الجمعي والفردي، وعلاقته بسيرورة المثل وطرق حفظه، كما تبحث في دور اللاوعي الجمعي في الكشف عن المنابع الأصيلة للثقافة الفلسطينيّة.

أمّا في الجانب التطبيقي؛ فتقوم الدراسة على قراءة بعض الأمثال؛ بُغية الكشف عن المسكوت أضمر في أغوار اللاوعي والتي تعدّ مصدراً من مصادر ثقافة الفلسطيني، وفيه ما يرفد المكتبة العربيّة بمادة علميّة مستحدثة.

أهميّة الدراسة

تكمن أهميّة الدراسة في محاولتها إضاءة جوانب مهمّة تكشف عن أصول الثقافة الفلسطينيّة القارّة في اللاوعي الجمعي فانت كثيرين ممن تعرضوا للثقافة الفلسطينيّة في دراساتهم للأدب الشعبي الفلسطيني بشكل عام، والمثل الشعبي على وجه الخصوص؛ فمحاولة رصد ملامح الثقافة من خلال الوعي لا يقدم صورة كافية؛ إذ يفتقد الأصول التي تمثّل المنهل الرئيس الذي نهلت منه الثقافة حتى استوت على سوقها.

إنَّ دراسة الأمثال وفاقا للاشعور تكشف عن جملة من الرواسب الثقافية القارئة في اللاوعي المجتمعي، والتي تعدُّ جزءًا أصيلاً من الثقافة تحضر في الخطاب دون وعي أو إدراك، أمَّا الجديد الذي تقدمه الدراسة في هذا السياق فهو أنَّها تتناول أثر اللاوعي في تشكيل مادة الأمثال مدعماً ذلك بمادة تطبيقية.

منهج الدراسة

لعلَّ المنهج الوصفي التحليلي هو الأنسب لهذه الدراسة ما يعين على الإلمام بمختلف المفاهيم المرتبطة بمتغيرات الدراسة.

هيكلية الدراسة:

تم تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة مباحث، يتناول المبحث الأول الأمثال في الاشعور الفردي، والمبحث الثاني الأمثال في الاشعور الجمعي، ويعالج المبحث الثالث سيرورة المثل وطرق استقباله، ثمَّ خاتمة بأهمَّ النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: الأمثال في الاشعور الفردي

يُعرَّف المثل على أنه: "قول موجز مكثَّف سائر مشهور، قيل في ظروف معيَّنة، يُستشهد به في حالة مماثلة، مُصاغاً صياغةً مادّية، يجمع في مفهومه عناصر: المورد، والمضرب، والإيجاز، والسيرورة، والثبات، والغرابية" (الهدروسي، 2008، صفحة 118)، "وتعدُّ الأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتمَّ تصوير، فهي مرآة للحياة الاجتماعيَّة والعقليَّة والسياسيَّة والدينيَّة واللغويَّة" (خفاجي، 1980، صفحة 273).

أولاً: مفهوم الاشعور (incoherent):

إنَّ أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر مصطلح الاشعور هو المحلل النفسي الطيب (Sigmund Freud فرويد)؛ إذ يرجع الفضل إليه في تأسيس مدرسة التحليل النفسي، وهي فرع جديد في علم النفس، وقد جعل من الاشعور النفسي أساساً لدراسته: "فاللاشعور هو أوسع ميدان لعلم النفس وهو الأساس الذي تقوم عليه مدارس التحليل النفسي الثلاث: مدرسة التحليل النفسي (فرويد)، ومدرسة علم النفس الفردي (أدلر)، ومدرسة علم النفس التحليلي (يونغ)" (جادو، 1992، صفحة 185).
لكي ندرك مفهوم الاشعور يجب أن نعرف ما هو الشعور، إنَّ مصطلح الشعور يُدلُّ على كلِّ ما يشعر به الإنسان بفعل العوامل المؤثرة فيه والتي يدرِكها العقل، من ذلك شعوره بالبرد والحرِّ والألم والحزن والفرح...إلخ، وهو حالة دائمة لا تنقطع عن الإنسان الذي يلازمه الشعور بالأشياء من حوله وأثرها عليه؛ فهي أشبه ما تكون بتيار الماء الذي لا ينقطع يتغيَّر ماؤه من لحظة لأخرى وقد تتغيَّر سرعته أو اتساعه أو عمقه؛ ولكنَّه مع ذلك مستمر حتى أثناء النوم؛ فهو يشعر بالصوت الذي يوقظه والماء الذي يصيبه (جلال، 1988، صفحة 37).

ينطلق منهج النقد الثقافي من مبدأ أنَّ لكلِّ ظاهرٍ مُدرَكًا مستترًا، ففي حين كان الشعور ظاهراً هو بالضرورة يستر تحت عباءته لا شعوراً مضمراً يخالفه الدلالة؛ فما يُظهِره الإنسان من مشاعر وأفكار مختلفة يستر في لاوعيه الخاص ما يخالفها دون وعي منه أو ملاحظة، تحدِّد بشكل رئيس معالم ثقافته الهامشة التي تطفو على السطح دون استئذان، إنَّ "وراء الشعور المعلن الاشعور المضمَّر، وإذا بمظاهر الإعلان والتعبير عن هذا الشعور تنطوي على إعلان آخر، وعلى تعبير مغاير؛ بل مناقض للشعور، وإذا بالشعور الظاهر لا يعدو أن يكون إنكاراً لهذا الشعور ونفيًا له" (فرج، 1981، صفحة 26).

إنَّ الناظر في أسس المدرسة النفسيَّة يجدها تهتمُّ بدراسة الشعور اهتماماً عظيماً، حتى سُي علم النفس (علم دراسة الشعور)؛ فقد فسَّر جميع الظواهر النفسيَّة على أساس الشعور حتى مراحل متقدمة؛ لذلك يرتبط منهج النقد الثقافي بعلم النفس ارتباطاً وثيقاً؛ فهو واحد من أبرز العلوم التي استعان بها النقد الثقافي في إرساء قواعده، "وذلك من خلال تحليل الحالة النفسيَّة للأشخاص داخل المجتمع؛ لما لها من أثر مهمٍّ في كشف معالم تلك الثقافة، وأسباب تراجعها، أو تقدُّمها تبعاً للحالة النفسيَّة للمجتمع، وهو ما يهتمُّ به النقد الثقافي في دراسته، وقد اصطلح عليه لاحقاً بـ(علم النفس الثقافي)، الذي يرى أنَّ الثقافة والعقل لا ينفصلان، وقد أُلِّف في ذلك (برتران تروادك) كتابه "علم النفس الثقافي"، وقف فيه مطوِّلاً على علاقة علم النفس بالثقافة". (عاصي، 2022، صفحة 20).

يتكوَّن الاشعور بشكل أساس من كلِّ ما هو منسيٌّ، وينقسم الأخير إلى نوعين: الأول سطحيٌّ يمكن استرجاعه بسهولة، والثاني نسيان عميق يحتاج استرجاعه وسائل خاصَّة، وما يميِّز الاشعور أنَّه لا يتقيَّد بقيد ولا يرتهن لقاعدة، يحضر خاطر الإنسان دون استئذان؛ فهو لا يُدرِك الفواصل الزمنيَّة؛ فالحاضر والماضي عنده سواء، فما إن يمرَّ بحياة الإنسان حدثاً ما إلَّا وتسلسل إلى خاطرة من أغوار ذاكرته حدث مشابه محمَّل بجملة من المشاعر والأحاسيس تفرض نفسها على الحدث الحاضر؛ وهو بذلك يقوم مقام الوسيط

الذي يقوم بصفات ووظائف نفسية معينة (جلال، 1988، صفحة 12)؛ فاللاشعور هو "المخبا الذي تُلقى فيه بكل ما يزعجنا ويروعنا من رغبات وأفكار، ونقفل الباب دون هذه الرغبات والأفكار ونحكم الإقفال" (جلال، 1988، صفحة 32).

ومن الدوافع وراء اهتمام المدرسة النفسية بدراسة اللاشعور هو أثره الكبير في سلوك الفرد ودوره في توجيه أفكاره وتشكل ثقافته الهامشية؛ وذلك بعينه مخزن أفكاره ومخاوفه ورغباته التي لا يعيها ظاهراً؛ "ففي اللاشعور تتخذ ثياباً رمزية ينظر إليها العقل الواعي على أنها كلام فارغ، وهو في الحقيقة لا يعرف أهميتها" (إسماعيل، 2013، صفحة 55).

ولبيان أثر اللاشعور في ضبط سلوك الأفراد وتوجيه أفكارهم نورد المثل الشعبي: "إللي ما يخاف ما يخوف ما يخوف" يُضرب المثل في سياق تبرير الخوف إذا كان في حدوده الطبيعية (السهلي، 1996)؛ فالإنسان فطر على النقيضين يُخيف من هو دونه ويخاف ممن يعلوه؛ فاللص الذي يمثل مصدر قلق للمجتمع؛ بسبب جرأته في اقتحام البيوت بلا خوف أو تردد هو أيضاً يخاف على بيته، ففي المثل: "الإحرام يخاف ع داره" (السهلي، 1996)؛ من ثم فإن المثل يقدم نسقاً ظاهراً مفاده أن الخوف الذي يشعر به أفراد المجتمع أمر فطري؛ فمن غير الخوف لا يمكن أن نخيف عدونا؛ لأن الذي لا يخاف عدوه لا يمكن أن يخيفه؛ بالتالي فإن المثل يبرر للمتلقي حالة الخوف المطلق التي يعيشها، حيث يحاول نقل مشاعر الخوف من السلب إلى الإيجاب بأن يجعله شعوراً طبيعياً، وهو في الحقيقة صدى الظلم والقهر الذي يعيشه الفلسطيني في وطنه.

في ذات السياق يرد المثل المضاد: "إللي ما يخاف من الله، خاف منه" (السهلي، 1996)، يُقدّم المثل دلالة ظاهرة مفادها أن الإنسان الذي لا يخاف من الله حري أن يخاف منه؛ إذ لا رادع لديه من أن يقوم بأي عمل سيئ، ما يجعل المثل وسيلة ناجعة يستأنس بها الناس في سياق الحديث عن الشخص البعيد عن الدين، بيد أن هذه الدلالة العائمة تنطوي على نسق فُبحي مُضمر؛ فالمثل يدعو إلى الخوف من كل من هو بعيد عن الدين، وهذا بالضرورة ينطبق على الاحتلال وعائلات الإقطاع؛ ما يجعله دعوة صريحة إلى الخوف من الظلمة، ما يقر العجز المطلق بعد سلب الفرد أدوات المقاومة وهي الشجاعة؛ من ثم ظل الحق مغتصباً والوطن مستباحاً، وما يزيد هذه الدلالة حضوراً المثل الذي يصور الجبن على أنه فضيلة والشجاعة مهلكة، يقول المثل: "ألف كلمه جبان، ولا كلمه الله يرحمه" (السهلي، 1996)، ومثل آخر يبالغ في وصف الخوف وما يلحقه من أذى جسدي ونفسي، ورد في المثل: "الخوف يقطع الجوف؛ يُضرب للخوف يجعل المرء يرتد عن عتبه" (السهلي، 1996) والمثل: "الخوف يقطع الركب" (السهلي، 1996).

إن مناقشة جملة الأمثال التي قدمت دلالة ظاهرة تضاد الصورة السابقة، تسدل الستار عن الدلالات الحقيقية التي تصوّر الخوف المطلق على أنه شعور طبيعي، يرجع بالنفع على صاحبه الذي يسلم من عواقب اندفاعه، ما يكشف حقيقة أن هذه الأمثال تلتقي دلاليًا والأمثال السابقة، وقد كانت سبباً في ترسيخ ثقافة الاستبداد من خلال تأصيل الخوف الذي أصبح ظاهرة في اللاوعي الثقافي الفلسطيني.

وفاقاً لما سبق يمكن تعريف اللاشعور على أنه: "مستودع لجميع الأفعال الانعكاسية والاعتيادية، وكل عادة من عاداتك تكون كأمر محقق، عاملة على التأثير في العقل الباطن، ونحن نبي العادات بتكرار أفعال ثابتة، وكل عادة تطبع نفسها على اللاشعور تكون في الواقع شيئاً من اللاشعور وأنت لا يمكنك أن تكون عادة من غير أن تعمل تخطيطاً في العقل الباطن" (الزيات، 1933، صفحة 12)، أو هو كما عرّفه فاخر عاقل: "صفة لفاعلية لا يعرف الإنسان سببها أو الحافز إليها" (عاقل، 1988، صفحة 297).

ثانياً: الأمثال في اللاشعور الفردي

يمكن تعريف اللاشعور الفردي على أنه مجموعة الخبرات التي يكتسبها الفرد خلال حياته بصرف النظر عن مصدرها، وما يُميّز هذه الخبرات أنها تخص فرداً دون آخر تلون حياته بلونها الخاص. وقد كانت هذه المكتسبات في بدايتها شعورية يدركها الفرد إلا أنها مع مرور الزمن أصبحت لا شعورية بسبب تعرضها لعوامل النسيان التي جعلتها تتراكم في اللاوعي الفردي مشكّلة ثقافة هامشية تكثرت في ثنايا أفكارنا ومواقفنا تؤثر بشكل أساسي في تنظيم الشخصية أو تصدعها؛ فهي "تعمل عملاً هاماً في حياة العقل الواعي، والعواطف الظاهرة، والعزيمة الصادقة" (العوا، 1946، صفحة 6/1).

إن واحدة من أهم المنتجات الثقافية التي يلعب فيها اللاشعور دوراً رئيساً في تشكيلها هي الأمثال الشعبية؛ فهي المرأة التي تسجل التحولات التي يمر بها الفرد، كما تُمَثّل ترجمة دقيقة لدراسة بنية ومكونات العقل الفردي وما يختزنه في اللاشعور؛ وبذلك تقدّم لنا ملخصاً كاملاً عن تجارب الفرد المجتمعية؛ "فما من فكرة يقبلها العقل المدرك إلا وتدخل إلى منطقة اللاشعور، فإذا تكرّر مرور هذه الفكرة مرات ومرات من الشعور إلى اللاشعور اكتسبت هذه الفكرة صفة الرسوخ، وأصبحت ضمن يقين الإنسان وثوابته ومعتقداته، وأصبحت تشكل مصدراً لأفعاله التلقائية" (الهلاي، 2010، صفحة 27)؛ وبذلك يكون اللاشعور أو ما يُسمى به (الشعور الداخلي) المتحكم بتشكيل أفكار الفرد وتوجيه ردود أفعاله.

إن الناظر في كلام الناس يلحظ الحضور القوي للمثل الشعبي في جُلّ ضروب كلامهم؛ فلا يكاد ينطق الشخص إلا ودعّم كلامه بمثل شعبي؛ ففيه الحجة التي يراها داعماً لقوله وإثباتاً لحجته؛ فما يُلخّصه المثل الشعبي يكاد يكون حجة دامغة، ومن ناحية أخرى

نلاحظ أنَّ المثل الشعبي يفرض نفسه في الخطاب العامي ينساب بيسردون أدنى جهد لتفكير أو محاولة استدعاء؛ فهي تلقائياً الحضور إذ لا يحتاج الأمر أكثر من تجربة مماثلة يشهدها الفرد بصرف النظر عن الزمان والمكان المتعلقين بمناسبة المثل؛ فالمثل راسخ في اللاوعي الفردي يشكّل مكوناً رئيساً من مكونات ثقافته الخاصّة.

عندما يشهد الفرد موقفاً يقلّد فيه الولد أباه يحضر على لسانه المثل: "فرخ البط عوام"، فلا نجده يفكر في الزمان الذي قيل فيه أو المناسبة الأولى التي لخصها إذا ما كانت مطابقة لهذه المناسبة أم لا؛ لأنّ اللاوعي هو الحكم في مثل هذه المواقف؛ "فليس لما يجري في اللاشعور أيّة علاقة بفكرة الزمن؛ إذ إنّه لا يوجد في تلك المرتبة من مراتب العقل أيّ توقيت أو زمان، وهكذا يساعد انعدام الزمن في اللاشعور على التكثيف (Condensation) الذي يمكن عن طريقه أن يلمح اللاشعور الحوادث المتباعدة بعضها عن بعض في الزمن كأنها متجمعة بعضها إلى بعض، إذا كان بينها أيّ نوع من الترابط أو العلاقة" (إسحاق، 1942، الصفحات 43-44).

إنّ التداخل بين الشعور واللاشعور يكاد يجعلهما واحداً؛ إذ يسمح الشعور للاشعور بالحضور في ذروته؛ فلا يستطيع العقل أن يميز بينهما، فكلاهما من ردّات الفعل العقلية أمام الحدث؛ "فاللاشعور في الإنسان غير مستقل عن الشعور، ولكنّه ترجمة مُحوّرة له، ورموزه مُعبّرة عنه؛ فهو بهذا عمليّة نفسية إنسانية" (إمام، 1971، صفحة 73)، والمختص هو الوحيد القادر على الفصل بينهما وليس ذلك باليسر؛ إذ يحتاج الأمر إلى وعي تامّ بثقافة صاحب الخطاب العامّة، إضافةً إلى ثقافته الهامشيّة. ولا يتمّ ذلك إلّا من خلال الاستعانة بالسياق الذي يهتمّ به النقد الثقافي، وخير ما يمثّل السياق الخارجي للمثل الشعبي هو اللاشعور؛ فما يُصرّح به الشخص عفواً ظلماً منه أنّه أمر محمود وكذلك يراه المتلقي، قد يُضمر في أغواره قُبْحاً مضاداً للدلالة التي قصدها؛ "فهو ينبعث في أغوار النفس دون أن يشعر به الإنسان" (الوردي، 1996، صفحة 166).

والتداخل بين الشعور واللاشعور بين الماضي والحاضر بين المواقف المتضادة، هو ما يجمع المتضادين في موقف خطابي، وهو المثل الشعبي، ومن ثمّ فإنّ المثل قد يحضر في مقام مخالف دون وعي المتكلم. إلّا أنّ اللاشعور الخاص دفعه ظلماً من العقل تشابه المناسبات.

إنّ ما يميّز اللاشعور أنّه تعبير مُكثّف دقيق، "يقوم بتأثيرات أقوى من تأثيرات الشعور" (الأسمرى، 2012، صفحة 398/1)؛ فعلى الرغم من أنّه يصدر من صاحب الخطاب البسيط عفواً خاطرٍ إلّا أنّه يحمل في طياته ملخصاً دقيقاً لتجربة مجتمعيّة مرّت بمحطات عدّة هُذبت ونُسّقت حتى استوت على سوقها؛ فنحن أمام موجز خطابي يلخص تجربةً طويلةً حافلةً بالأحداث، يشترك في صقلها مختلف فئات المجتمع يُكسبه كلّ منهم شيئاً من ثقافته؛ وهذا ما يجعل المثل محملاً بدلالات عدّة خصوصاً المُضادة منها؛ فتوظيف المثل في خطاب ما لا يعني أنّه مناسب له؛ فقد يكون المثل يُظهر دلالات تُقدّم المرأة وتُعلي من شأنها وهو في حقيقة الأمر ذمّ مُضمر لظرفي الخطاب.

في المثل الشعبي السائر: "إلها ثمّ توكل ملهاش ثمّ يحكي" (السهلي، 1996، صفحة 71)، في ظاهر المثل مدح للمرأة قليلة الكلام، تستأنس به النساء في وصف البنت الجيدة خصوصاً في مواقف الزواج؛ لكنّ الحقيقة المُغيّبة هي أنّ المثل فيه قُبْح مضمّر يقدر في المرأة مُضمرًا في أغواره موروثاً ثقافياً سيّئاً؛ فالمرأة الصامته مزروعة القرار التي لا تناقش زوجها هي المرأة الجيدة؛ فالقمع عندها للأكل فقط تطيع دون اعتراض، وكلّما قلّ كلام البنت زاد قدرها، فخير البنات من لا تتكلم مطلقاً ولا تستمع لما يقال، ورد في المثل: "بنت الأجاويد خرسا، طرشا" (لوياني، 1999، صفحة 225)، "إنّ الكلام ليس تعبيراً جمالياً فحسب، بل إنّه ضرورة فطرية به تتحقق إنسانية الإنسان، والإنسان كما يرى أسطو حيوان ناطق، ينصّ على الفارق الجوهرية بين درجة الحيوانية البحتة وأن يصبح الحيوان إنساناً، والكلام ليس مخترعاً ثقافياً، وإنما الصمت هو المخترع؛ فالكلام صفة جوهرية غريزية في الإنسان، وعجزه عن الكلام علة تطرأ عليه، إما لأسباب قمعية سلطوية أو ثقافية" (الغدامي، 2005، صفحة 203).

وهذا يتعارض وظاهر المثل الشعبي: "إن دشروا البنت على خاطرها، يا بتوخذ يا طبال يا زمار" (السهلي، 1996، صفحة 77)، وقد علّق صاحب الموسوعة على المثل أنّه يُضرب في البنت التي يشاورها أهلها في زواجها أنّها لا تأخذ زوجاً جيّداً، والصواب هو عدم مشاورتها (السهلي، 1996، صفحة 77).

في الدلالة الظاهرة نلمح بين المثلين تضاداً فاقعاً؛ لكن ما أضمّر عن المجتمع أنّ المثلين تجمعها دلالة واحدة راسخة في اللاشعور تتعلق بمكانة المرأة، وبعض ذلك أمثلة تعدّ ولا تُحصى؛ فلا يمكن أن يكون صمت المرأة عن قرارها في حقّها باختيارها زوجها خيراً لها؛ فهذا المثل وما شاكله يكشف عن نسق ثقافي مُضمر يُفصح عن الصورة السيئة الكامنة في اللاشعور والمتعلقة بالنسق الذكوري تجاه المرأة، ومَرْدٌ مثل هذا التوظيف راجع إلى اللاشعور؛ فهو "يتكلم بلغته الخاصّة بصورة أو بأخرى، ليس الشعور وليس العقل" (بن نبي، 1984، صفحة 53).

يصف اللاشعور العمليات النفسية التي يعجز الإنسان عن إدراكها من خلال الشعور في حالة اليقظة؛ ومن ثمّ فإنّ اللاشعور هو المنتحكم في التصورات والأفكار وفي ردود الفعل التي تكون غالباً من الدوافع المخترنة في اللاشعور، يخال الفرد أنّها وليدة الشعور بنت اللحظة وهي في الحقيقة حضور للاشعور (محسن، 2019، صفحة 218).

إنَّ مما يستدعي التوقُّفَ أمامه في هذا السياق المسألة حول السبب الذي يجعل اللاشعور قوِّيَّ الحضور في مختلف المواطن التي تُوجب إعمال الشعور الذي يوجهه العقل ويضبط اتجاهاته، خصوصاً وأن ملقي الخطاب لا يدرك متى يحضر اللاشعور في خطابه؛ فهو عبارة عن قوَّى كامنة في أغوار النفس تسير الإنسان وتؤثر في سلوكه من حيث لا يشعر.

والعلَّة في ذلك كما يرى علي الوردي هو الموروث الثقافي الذي اكتسبه بفعل المتغيرات السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي مرَّ بها الفرد في المجتمع؛ "فبعد أن كان الإنسان حرّاً مختاراً يوجه سلوكه في ضوء العقل الواعي ويقرر مصيره بإرادته، أصبح اليوم يعدُّ كأثمة آلة صماء تسيطر عليه الحوافز اللاشعوريَّة وتدفع به دفعاً" (الوردي، 1996، صفحة 142).

إنَّ تناول اللاشعور بعَدِه عمليَّةً ديناميكيَّةً تتحكم بعقل الإنسان وتوجِّهه وفق مخزونها الثقافي؛ يدفعنا إلى أن ننظر إليه من زاوية السلبِيَّة؛ فهو يطغى على عقل الإنسان، خصوصاً وأنَّ فرويد تناول اللاشعور في ظل معالجة الجوانب السلبِيَّة في المجتمع، من ذلك: الغرور، والجنس، ومختلف الأمراض النفسيَّة (الوردي، 1996، صفحة 154).

لقد تخلَّق انطباع سلبِيٌّ لدى بعض الباحثين اتجاه اللاشعور. على الرغم من كونه وسيلة لا غايةً في ذاته، وإن كان وظَّفه فرويد في بحثه لكن لا يعني ذلك أنه سلبِيٌّ أوجب النظر إليه بازدراء؛ إنَّ اللاشعور بالضرورة جزء من ثقافة الفرد الهامشيَّة التي تشكَّلت بفعل حوادثه التي عايشها وردَّات فعله عليها، ومن ثمَّ هي وسيلة لسبر أغوار العقل والكشف عن أهمِّ مكوناته وهي الثقافة؛ فمن خلال المثل الشعبي وسياقات اللاشعور الكامنة فيه يستطيع النقد الثقافي أن يرصد معالم شخصيَّة الفرد ومكوِّنات ثقافته التي يجهلها الفرد عن نفسه، وأبعد من ذلك هو يرصد معالم ثقافة المجتمع عامَّةً.

في المقابل من الصورة السلبِيَّة للاشعور التي يراها بعضهم والتي فهمت خطأً من توظيف فرويد كان من وظَّف اللاشعور توظيفاً يمكن أن نصفه بالإيجابي، مثال أولئك: (جاك لاكان Jacques Lacan) خير من أفاد من بحث فرويد؛ فقد بدأ (لاكان) نظريَّته تحت شعار (العودة إلى فرويد) مؤكِّداً على أهميَّة اللاشعور بمفهومه الفرويدي؛ حيث يستند إليه في بناء نظريَّته اللغويَّة (جان آلان، 1983، الصفحات 78-84).

ومن ضروب ذلك التوظيف ما يقوم به منهج النقد الثقافي اليوم؛ فهو يقدم للباحثين طرْحاً فريداً حين يستعين به في درسه النقدي متناولاً المثل الشعبي الذي لم يعد ينظر إليه كشكل من أشكال الفنون الشعبيَّة؛ فهو يرى فيه عملاً يستحث قوة داخلية على التحرك، كما يرى فيه مؤثراً مهمّاً في سلوك الناس؛ فالمعنى والغاية يجتمعان في الأمثال الشعبيَّة وهي على اختلافها تعبّر عن تاريخ وفكر الأمم (محسن، 2019، صفحة 217)؛ فالأمثال الشعبيَّة كما يرى (فريدريك بول Fredrik Bull) تلعب دوراً في عملية النمو الخلفي للفرد؛ فالأخير يتأثر بعوامل عدَّة وأكثرها أثراً هي التنشئة الأسرية التي تعيق مراحل النمو الخلفي، وقد توقفه عند مستوى معين وقد توجهه باتجاه خاطئ غير ملائم لشخصيته أو مطالب مجتمعه (محسن، 2019، صفحة 218).

ومن أمثلة توظيف اللاشعور في النقد الثقافي، هو مناقشة جملة الأمثال المتواردة التي تقارن بين الرجل والمرأة في المثل الشعبي الفلسطيني، ترتبط صورة الرجل في المثل الشعبي الفلسطيني بصورة المرأة ارتباطاً وثيقاً؛ إذ إنَّ الصورة السلبِيَّة للمرأة في المثل لوحظت من خلال مقارنتها بالرجل في جُلِّ صورها، والعلَّة الواضحة في ذلك هي السلطة الذكورية السائدة في المجتمع، والملاحظ أنَّ الأمثال قد قارنت بين الرجل والمرأة في مختلف الصفات: الجسدية والنفسية والبيولوجية؛ فمن حيث القوة والقدرة على الإنجاز تتفوق قدرة الرجل على قدرة المرأة بأضعاف، ورد في المثل: "إللي بتجيئه المَرَّة بسينة، بجيئه الرِّلَّة بيوم؛ يُضرب للرجل يكون إنتاجه أكبر وأعظم من إنتاج المرأة" (السهي، 1996، صفحة 73)، والأخيرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها إذا ما اعتدِّي عليها؛ من ثمَّ لا يمكن أن تعيش عفيفة مصانة خارج كنف الرجل، جاء في المثل: "المَرَّة بلا رَجَال، مِثْل البِسْتَان بلا سُباح" (السهي، 1996، صفحة 43)؛ فهي من غير رجل كما البستان المكشوف يدخله من يشاء ويعتدي على زرعه دون رادع، ما يجعلها ثقلاً يرهق كاهل الرجل، إنَّ بالتكليف المادية وإنَّ بالخوف من الاعتداء عليها، ورد في المثل: "المَرَّة مَرَّة، ومَرَمَرَّة، ومُسمار في العنطرة؛ يُضرب لأصناف النساء، كما يُضرب للزواج يكون أبدياً" (السهي، 1996، صفحة 40).

وفي معرض ذكر صفات الرجل السلبِيَّة فإنَّ المرأة هي سبب سوء خلقه وانسلاخه من بعض صفات الرجولة، ورد في المثل: "المُخْلِدة بتَقْلِب الرِّلَّة؛ يُضرب للرجل إذا ساءت معاملته لأهله بعد زواجه، بوحى من زوجته" (السهي، 1996، صفحة 259)، وفي الوقت الذي يخشى فيه من استئمان المرأة على السرِّ وفاقاً للمثل: "إللي يخفي سرِّ امرته يندم"، نجد الرجل مستودعا أميناً للسرِّ مخلصاً في وعوده، قاطعاً لشروطه، ورد في المثل: "إلرِّلَّة بتَرْتَب من سائئة" (السهي، 1996، صفحة 43)؛ فالرجل إذا قطع وعداً فإنه يلتزم به، وفي النفقة وتكاليف الحياة فإنَّ ما تستهلكه البنت خسارة، أمَّا الولد فهو ادِّخار لوالديه، ورد في المثل: "إللي بتوكُّله البنت خساره، واللي بُوكله الولد بُرُّدُه؛ يُضرب لتفضيل الأولاد الذكور على الإناث" (السهي، 1996، صفحة 71)، والمرأة عيوبها أكثر من أن تحصى، أمَّا الرجل فلا عيب فيه؛ اللهمَّ إلا إنَّ كان فقيراً، ورد في المثل: "الرِّجَال ما يعيبُه غير جيبُه" (لوباني، 1999، صفحة 378).

في ذات السياق يرد المثل المضاد: "جوزك قبل رَك" (لوباني، 1999، صفحة 400) يضرب المثل في سياق الحثِّ على احترام الزوج وتقديره، ما يُحمِّل المثل دلالة إيجابية؛ فاحترام الزوج واجب شرعي؛ لكنَّ نظرة في المثل تجده يقدم الزوج على الربِّ في معناه

المجازي؛ للمبالغة في التصوير الدلالي، غير أنّ هذا التوظيف يوراري في أغواره نسقا قبيحاً مضمراً؛ فمكانة الرجل المقدسة في اللاوعي الثقافي الفلسطيني تجعل من طاعته سابقة لطاعة الله، ولهذا التوجه أصل ديني وظّف في غيره مقصده؛ فقد ورد في الحديث: "لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَخِي لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا" (أبو داود، 2009، ح: 2140)؛ من ثمّ فإنّ المرأة عبدة لزوجها تطيع أمره وتصبر على أذاه، ومن ثمّ فإنّ الكشف عن النسق المضمّر في المثل يصور موقف المجتمع من الرجل حيث يمنحه صفة القداسة، في حين يلقي على المرأة عباءة العبودية.

تأسيساً على ما سبق:

لقد كان للاشعور الفردي أثره الجلي في تشكّل مادة الأمثال الشعبيّة ونظم بنائها، وعارضُ المثل الشعبي على منهج النقد الثقافي يعي ذلك جيداً؛ فالمنهج يهتم بأدق التفاصيل في مختلف المستويات اللغويّة؛ فهو على صعيد السياق القريب المتمثل في بنية المثل يهتمّ بالجانب الصرفي والصوتي والبلاغي والدلالي والتركيبي، يعالج المصطلحات وأثر توظيفها والبنى الصوتيّة والصرفيّة وأثرها في معنى المثل وتوجيه دلالتة.

أمّا على المستوى الواسع فهو يتناول المثل في السياق العام الذي وقع فيه؛ فهو بالضرورة المتحكم الأساس في توجيه الدلالات المضمّرة التي تخفيها التراكييب، واللاشعور هو الركن الأساس في تحديد معالم ذلك السياق، كيف لا والمثل الشعبي وليدٌ مخاضٍ طويل للاشعور مرّ بمراحل وتجارب عدّة، كان للتراكيمات المعرفيّة أثر بالغ في تشكّل مادة المثل.

المبحث الثاني: الأمثال في اللاشعور الجمعي (Collective unconscious)

يرجع الفضل في غرس بذرة نظريّة اللاشعور إلى رائد مدرسة المنهج النفسي (فرويد) الذي "سلط أنوار العلم المعيشة على أعماق اللاشعور الإنساني" (هايمن، 1958، صفحة 258/1)، وقد تبوّأ بعده تلامذته وبعض من تأثر بمنهجه وحذوا حذوه في تناولهم المنهج النفسي عامة ونظريّة اللاشعور خاصّة، من أبرز أولئك كان (كارل يونغ Carl Jung)؛ فقد رافق ملهمه في مختلف لحظات مسيرته الفكرية، كما أبدت أعماله تقارباً مع فرويد، على الرغم من اعترافه بخلافه معه في بعض طروحاته الفلسفيّة؛ إلّا أنّ هذا الانفصال لم يمنعه من أن يحمل معه تقريباً نفس الجهاز المفاهيمي الذي اشتغل به مع أستاذه.

إذا كان اللاشعور الشخصي هو محور نظريّة فرويد في بناء الشخصية ونموها، فإنّ اللاشعور الجمعي هو جوهرها عند (يونج Jung)، وهو عنده: "صور ابتدائيّة لا شعوريّة، أو رواسب نفسيّة لتجارب ابتدائيّة لا شعوريّة لا تُحصى، شارك فيها الأسلاف في عصور بدائية، وقد وُزّنت في أسجة الدماغ، بطريقة ما؛ فهي إذن نماذج أساسيّة قديمة لتجربة إنسانيّة مركزيّة" (هايمن، 1958، الصفحات 246-245).

لقد بدا اهتمام (لاكان) باللاشعور واضحاً في دراساته اللغويّة؛ فهو يرى أن: "اللاشعور هو الأساس، فاستخدم منهج اللغويات ليخبرنا بأنّ اللاشعور هو من يتكلم أو يفكر حينما يتكلم الإنسان أو يفكر، كما ذهب إلى أن الاتصال البشري مستحيل حيث إنّ اللاشعور سيتدخل في الطريق" (المسيري، 1999، صفحة 341/8)، تؤكد نظريّة (لاكان) بطريقة ما أنّ اللاوعي الجمعي هو المتحكم الأساس في ضبط أساسيات التواصل بين الناس؛ فلسان المجتمع يوح بالمخزون الثقافي الجمعي الذي تشكّل بعوامل وظروف مختلفة، وقد لخصّ تلك التجارب من خلال الأمثال الشعبيّة.

قد يبدو للسامع أنّ الخطاب بدع من تفكير المتكلم؛ لكنّه في الحقيقة استحضار لشيء من تلك الثقافة المستترة تضرر في أغوارها ملامح ثقافته؛ فاللاشعور: "مخزن آثار الذكريات الكامنة التي ورثها الإنسان عن ماضي أسلافه الأقدمين" (هول، 1977، صفحة 109).

على الرغم من أنّ اللاشعور الفردي يلعب دوراً مهمّاً في وجود الأمثال الشعبيّة، إلّا أنّ الدور الأبرز يلعبه اللاشعور الجمعي؛ وذلك أنّ الأخير هو الوعاء الواسع الذي يحوي ثقافة المجتمع والتي تؤثر على ثقافة الفرد الخاصّة على الرغم من حضورها؛ لكنّها تطغى عليها وذلك من خلال تأثير الفرد بالعادات والتقاليد ومختلف قيم المجتمع؛ فهو بصورة أو بأخرى في كثير من القيم مسيرٌ لا مخيرٌ يحتكم بحكمها ويخضع لقانونها؛ فهو وإن ظن أنّه متحرر من قيّم مجتمعه إلّا أنّه يرضخ لها دون وعي، ودليل ذلك الأمثال الشعبيّة التي يوظفها في خطابها، فهو يوظفها في سياقات مشتركة وأبناء مجتمعه بصرف النظر عن الفوارق الثقافيّة بينهم؛ "فالعقل اللاشعوري هو المنظم الأعظم لحركات جميع الأعضاء؛ فإذا اختل سير عضو منها وغرّسنا الاعتقاد بأنّه سيقوم بوظيفته حالاً، انتقل هذا الأمر إلى العضو فيطيعه صاغراً ويؤدي عمله إمّا في الحال وإمّا شيئاً فشيئاً" (جادو، 1992، صفحة 189).

إنّ اللاوعي الفردي وإن كان مستقلاً بذاته في بعض جوانبه من خلال المحتويات الفردية الخاصة المترسبة في ثقافته الهامشية؛ إلّا أنّه لا يتمايز عن اللاوعي الجمعي إلّا من خلال المعرفة الذاتيّة والوعي الذاتي (السكافي، 2018)؛ فالمثل الشعبي مرتبط بشكل وثيق مع الواقع الاجتماعي، وهو بالضرورة نتيجة تلقائيّة للظروف والمتغيرات التي ينتجها اللاشعور الجمعي؛ ومن ثمّ يكون لها سهمة واضحة في

تكريس العادات والتقاليد التي تؤثر في اللاشعور الفردي؛ وبذلك يكون الأخير يشارك اللاوعي الجمعي في مادة المثل الذي يحوى دلالات ممثلة لثقافة المجتمع عامة، لا تحضر فيها الدلالات الفردية إلا بصورة خجولة.

وهذا ما نجده واقعا في المجتمع؛ إذ إن بعض الأمثال أصبحت تمثل عادة من عادات المجتمع التي لا يجوز الخروج عليها وإن خالفت الدين أو العقل، من ذلك المثل السائر: "إبن عمّ العروس يترّلها عن ظهر القرس" (لوياني، 1999، صفحة 14) يُضرب المثل في أحقية ابن العم بابنة عمّه حتى ولو كانت في طريقها إلى بيت زوجها؛ فابن العم أحقّ بابنة عمّه، ومن ثمّ فإنّ البنت ملزمة بابن عمّها بصرف النظر عن رغبتها بغيره أو موقفها منه، كاشفا صورة من أجلى صور الظلم الواقعة على المرأة في المجتمع الفلسطيني، ولهذا التوجّه أصل قديم ممتدّ في ثقافة العربي؛ فقد ورد في الحديث الذي رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها: "أَنْ فَتَاةً، دَخَلَتْ عَلَيَّ فَقَالَتْ إِنَّ أَبِي رَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ لِيَرْفَعَ بِي حَسْبِيَسْتَهُ وَأَنَا كَارِهَةٌ، قَالَتْ: أَجْلِبِي حَتَّى يَأْتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ أَيُّهَا فَدَعَاهُ فَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَيْهَا. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ اللَّيْسَاءِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ" أخرجه النسائي (3269)، فقد كان من عادات العرب أن تُلزم البنت من الزواج إلى ابن عمّها سعيا وراء المصالح الشخصية؛ ولا زال هذا الأمر شائعا حتى يوم الناس هذا؛ فقد نُقل عن بعض الآباء أنّه زوّج ابنته إلى ابن عمّها حرصا على الأرض أن تبقى ملكا للعائلة في حال قسّم الميراث الذي تحرم منه المرأة غالبا.

إنّ ارتباط المثل الشعبي باللاشعور مرده إلى الجانب النفسي الذي ظهر المصطلح في كنفه؛ فهو الأساس في تشكّل مادة الأمثال الشعبيّة وهو الأقدر على التعبير عن المشاعر المكبوتة من جانب، ومن جانب آخر تلعب دورا في الترفيه عن النفس، خاصّة عند الذين يعانون من تراكم الرغبات المكبوتة، والعقد المُخْتزنة في اللاشعور؛ إذ من خلالها ينفس الناس عن تلك الرغبات بالطرق الوهميّة، وأبرز تلك الوسائل الأمثال الشعبيّة؛ فمن خلالها يمكن للإنسان أن يتقمّص الشخصيات، ويمرّ بالعديد من التجارب والخبرات، مما يؤدي إلى الشعور بالراحة النفسيّة (إمام، 1971، صفحة 73).

وهي إلى جانب ذلك تعدّ بمثابة قوانين اجتماعيّة شبه ملزمة، تسنّ القواعد التي يخضع لها المجتمع (بوخريص، 2004، الصفحات 53-65)، ومن ثمّ نجد أنّ الأمثال الشعبيّة ترصد الإرهاصات النفسيّة المختلفة الإيجابية والسلبية على السواء؛ فاللاشعور "جملة من المتخلفات النفسيّة لنمو الإنسان التطوري، تلك المخلفات التي تراكمت لديه نتيجة الخبرات المتكررة عبر أجيال" (الهيبي، 1976، صفحة 116).

ختامًا: إنّ المثل الشعبي يتشكّل نتيجة لعلاقات تبادلية بين الإنسان وواقعه الاجتماعي والثقافي والسياسي، وعلاقة التأثير بينهما تبادلية؛ فهو يتأثر بها ويؤثر فيها؛ فما واقعه الشعوب ينتقل عبر الأجيال ليشكّل فيما بعد واقعا يعيشه أفراد المجتمع الحالي ويحدّد نمط حياته؛ فهو بالضرورة ينقل العادات والتقاليد وقيم المجتمع من خلال أجيال عدّة إلى واقع الأفراد، وهذا ما يطلق عليه (اللاوعي الجمعي) (السيد، 1982، الصفحات 257-275).

المبحث الثالث: سيرورة المثل وطرق استقباله

إنّ الحديث عن الأمثال الشعبيّة في ضوء منهج النقد الثقافي ينقلها من مستواها الفولكلوري إلى تناولها بعدّها نصّا يعبر عن وقائع ذاتيّة محمّلة بدلالات ثقافيّة تحمل أبعادا اجتماعيّة وسيكولوجيّة مترسّبة في اللاوعي الجمعي الفلسطيني؛ فأني قراءة للمثل في هذا السياق هي قراءة للاوعي المجتمعي الفلسطيني.

يعدّ المثل الشعبي واحداً من أهمّ مصادر الهوية الثقافيّة للمجتمع الفلسطيني؛ فهو رابط وثيق يربط الفلسطيني بماضيه ينقل إلى الحاضر تجارب الماضي المختلفة، ومن ضروب ذلك: الفنون الشعبيّة، والرقص، والموسيقى، والشعر، والقصص، والأحادي، والنكت.. وغيرها، إضافةً إلى الجانب الميثولوجي، وعلى المستوى المادي يشمل الصناعات والحرف والعادات والتقاليد ذات الأهميّة البارزة في ضبط السلوك الاجتماعي، خصوصاً الجانب المرتبط بالمراحل الانتقالية المهمة مثل: الولادة، والحياة، والموت، والزواج.. وغيرها (كناعنة، 2000، صفحة 35).

لعل من أبرز ملامح هوية الفلسطيني هي أرضه التي يعدّها داره ووطنه، من ثمّ فإن المثل الشعبي الفلسطيني قد أسهب في وصف صورة حُبّ الأرض والتعلق بها؛ بالتالي وجوب الدفاع عنها وفدائها بالنفس والمال لما لها من مكانة نفسيّة وماديّة في وعي الفلسطيني؛ ففي رأس ماله ومصدر قوته، ثمّ إنّ قيمة الإنسان مرتبطة ببقائه فيها، ورد في المثل: "إلّي بطّلع من داره، بقلّ مقدارّه؛ يُضرب لوجوب عدم مغادرة الأوطان، كما يُضرب للغربة تكون سبباً في إذلال الإنسان: (السهي، 1996، صفحة 61)، يُقدّم المثل نسفاً ظاهراً أنّ من يتخلى عن أرضه يصبح بلا قيمة حيث يفقده احترامه وانتماؤه، ما يفرض على الفلسطيني أن يتمسك بأرضه ولا يتخلى عنها تحت أيّ ظرف، وكما أنّ الإنسان يعزّ بوطنه، فإنّ الوطن يعزّ بأهله ويتزيّن بهم، ورد في المثل: "حلاة الدار أهلها، وحلاة اللبس صاحبها؛ يُضرب للدار لا تحلو إلا بسكّانها" (السهي، 1996، صفحة 175)، وقد أبدع المثل في التعبير عن الشوق للوطن بأن جعل الوطن هو الذي

يشترك إلى أهله ويطلب رجوعهم، محققاً أعلى درجات وصف الشوق إلى الوطن والحنين إلى الأهل، يقول المثل: "البلاد طَلَبَتْ أهلها: يُضرب للحنين إلى الأهل والوطن" (السهلي، 1996، صفحة 130).

ويمكن تحديد زمان ومكان المثل من خلال النظر في ألفاظه؛ فمن خلالها يمكن تحديد البيئة التي صدر عنها؛ إذ تمتاز كلُّ بيئة بألفاظٍ تميزها من غيرها، فألفاظ البيئة الشاميّة تختلف عنها في بيئة الخليج... ودواليك، أمّا الزمان فهو متعلق بالبيئة ذاتها؛ فكلُّ زمان له ألفاظه الخاصّة؛ فبعض الألفاظ قد اندثرت إلّا أنّ المثل قد حافظ عليها، في المقابل هناك بعض الأمثال قد تغشّتها التطور اللغوي فغبن على الباحث تتبعها زمانياً (جرادات، 2011). ومن ثمّ تكون مسألة تحديد زمان المثل بشكل دقيق ضرب من المستحيل، خصوصاً وأنّ الأمثال في جملتها مرتبطة بالماضي، ثمّ إنّ المثل من الألوان الفنيّة التي لم توثّق وليس لها سند.

إنّ أهمّ سمات المثل الشعبي التي يمكن استحضارها في هذا السياق أنّه قول لم يُعرف قائله؛ فلا يمكن أن نجد مثلاً واحداً عُرف قائله؛ "لأنّهم من عمل الشعب، وأعمال الشعب لا تُسجّل تسجيلاً فردياً، وكأنما يتلاشى فيما الفرد في الجماعة تلاحشياً تاماً" (عبد المتعال القاضي، 2005، صفحة 280)؛ فالمجتمع هو من أعاد خلق المثل وحافظ عليه في أبسط صورته، وهذا ما أكسبه صفة الجمعيّة (بالعربي، 1990، صفحة 43)؛ فقد نشأ في خضمّ تجربة عامة لمجتمع مستقر ومتوازن ومتضامن اجتماعياً وعائلياً وفيها من عمق التجربة ما لا يحدّه حدود (الحوارني، 1994، الصفحات 149-151).

والباحث في لغة الأمثال يجد أنّ التطور الذي أشار إليه فرحان قد مسّ جُلّ الأمثال، فلا نكاد نجد مثلاً إلّا وأصابه شيء منه، والسبب أنّ الأمثال هي خطاب المجتمع بمختلف أطيافه؛ "فهو ليس حكراً على فئة دون أخرى، بل هو نابع من جميع طبقات الشعب" (أمين، 2013، صفحة 61). ولو وجد فيها ألفاظاً غريبة لشقّ عليهم توظيفها والاستئناس بها.

وفاقاً لذلك يمكن أن نخلص إلى السمات التي ميزت المثل وساعدت في انتشاره وتناقله عبر الأجيال؛ وهي "أربع خصال اجتمعت فيه ولا تجتمع في غيره من الكلام، وهي: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه، وجودة الكناية؛ فهو آية البلاغة" (الميداني، 1873، صفحة 14)، وقد كان لهذه السمات سمة واضحة في انتشار المثل وشيوع استعماله، ومن الأمور التي تساهم في انتشار الأمثال وشيوعها طريقة توظيف المثل؛ فهو يُقال في مناسبة ثمّ يوظف في مناسبة مماثلة لها، وهذا ما أكسبه سمة التداول يتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل.

وعن شيوع المثل وسيرورته يرى المرزوقي في المثل أنّه: "جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلّة بذاتها تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول؛ فننقل عمّا وردت فيه إلى كلّ ما يصحّ قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها وعمّا يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني؛ فلذلك تُضرب وإن جُمِلت أسبابها التي خرجت عليها" (السيوطي، 1998، صفحة 375/1)؛ لذلك كان من ميزات الأمثال "سرعة سيرورتها على الألسن من جيل إلى جيل ومن جماعة إلى جماعة، والسيرورة تعني ضمناً أنّ المثل في سيرورته بين الناس عبر أجيالهم وأزمانهم ومواطنهم أصبح تراثاً شعبيّاً من نتاج جماعي عفوي" (الهدروسي، 2008، صفحة 105).

ومسرح الخاطر في كلام الناس يلحظ الوصف العفوي للمثل بأنّه سائر؛ إذ يقولون: "مثلٌ سائر، سواء كان شعراً أو غيره، وهو من السير في الأرض، استعمل في ذهاب المثل وشيوعه في سماع الناس، ويُقال أيضاً: مثل شارِد وشروود...؛ لأن المثل إذا شاع لا يُستطاع رده ولا يمكن إخماده كما لا يستطيع ردّ الشروود من الإبل" (اليوسي، 1981، صفحة 56/1).

يعدّ العقل الجمعي هو السجّل الوحيد الذي يحفظ الأمثال الشعبيّة التي تتوارثها الأجيال؛ فهو ينتقل مشافهةً يُحفظ في العقل، ويحتاج الخطاب في الموقف الكلامي للمثل عناصر ثلاث: المتكلم، والسامع، ومادة الخطاب، وهي المثل؛ فهو من أقرب ضروب الثقافة الشعبيّة إلى الناس جاء يعبر عن أفكارهم ويفرغ مكنونات أنفسهم، نجده "حاضراً في تجليات حياتنا العمليّة وهو يشكّل درساً للصغار، وعبرة للشبان، وترسيخاً لفهم الكبار، وتثبيتاً للإيمان؛ باعتباره حصيلة التجربة الإنسانيّة" (عطية، 2001).

لقد تميّز المثل بلُغته العاميّة البسيطة التي تراعي التفاوت المعرفي بينهم؛ لذلك نلاحظ أنّ كبار السنّ في المجتمع الفلسطيني هم الأكثر حفظاً للأمثال، في حين يشقّ على واحد منهم حفظ قصيدة من الشعر الجاهلي؛ فبالإضافة إلى لغة المثل العامية يحضر عنصر التكرار الذي جعل من الأمثال جزءاً أصيلاً من المخزون اللغوي، فهو إنتاج مجتمعي صادر عن اهتمامات الناس اليومية وممارساتهم العملية؛ ولأنّ المثل يعدّ من رواسب الذاكرة الشعبيّة كان أهلاً لأن يكون من أكثر الأشكال التعبيريّة سيرورة وشيوعاً.

خاتمة:

- يعدّ المثل الشعبي مخزوناً ثقافياً وثراءً أدبيّاً؛ فهو يعبر عن تجربة طويلة في حياة المجتمع، ويعكس أساليب العيش والمعتقدات والمعايير الأخلاقية، كما يصوّر ردّات فعل المجتمع وتعامله مع مختلف الظروف.
- إنّ الثقافة ظاهرة إنسانيّة تميّز الإنسان من غيره من المخلوقات، تتميز بالاستمرارية إذ تنتقل من جيل لآخر، كما تتميز بالتعدّد بسبب تداخل عناصرها فليس من اليسير الفصل بين ما هو معتقد ديني وما هو معتقد ميثولوجي، حيث تتداخل فيها العادات

والتقاليد والقيم والأعراف والطقوس الدينية والرموز والميثولوجيا والسلوك، ومن ميزاتها الإشباع والتكيف، فهي تلي حاجة المجتمع وتتكيف وفقاً للظروف المجتمعية المتباينة.

- إن اللاوعي الجمعي قادر على تفسير سلوكيات المجتمع، كما يهدي إلى منابع ثقافته الأصيلة.
- يعدُّ اللاوعي اللبنة الرئيسة في بناء نظرية التحليل النفسي عند رائد مدرسته فرويد الذي يرى أن جزءاً من تصرفاتنا وأقوالنا إنما هي نتاج أفكار لا نعلمها؛ من ثمَّ فإن ما تقدمه الأمثال الشعبية من دلالات يناقض ظاهرها الوعي الثقافي هي في الحقيقة من القارّ الثقافي الذي تشكّل بفعل اللاوعي الجمعي.
- إنّ المشكّلات الأصيلة للثقافة قارّة في اللاوعي المجتمعي تحضر من تلقاء نفسها لتفرض ذاتها على الوعي دون استئذان؛ فما يبدو ظاهراً دلالة مقصودة من وعي مرسل الخطاب هو بالضرورة ينطوي على أنساق مضمرة في اللاوعي الناطق دون إذن.
- إنّ من أبرز إرهابات اللاشعور الجمعي أن يكون المثل الشعبي قاعدة ثقافية ترسم العادات والتقاليد وتضبط اتجاهها.
- إنّ طريقة سيرورة المثل واعتماده على النقل مشافهة كان له سهمة واضحة في حفظه وانتشاره.
- لا يزال المثل الشعبي الفلسطيني بحاجة إلى مزيد بحث وجهد دراسة.
- إنّ عرض المثل الشعبي على المنهج النفسي يمكن أن يكشف عن مخزون ثقافي فلسطيني، كان له سهمة بارزة في تشكّل مادة الأمثال الشعبية وتوجيه دلالة مصطلحاتها.

قائمة المراجع والمصادر

- أحمد الزيات. (1933). كتاب مجلة الرسالة، العدد 573. صفحة 12.
- أحمد أمين. (2013). قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية. القاهرة: دار هنداوي.
- أحمد بن محمد الميداني. (1873). مجمع الأمثال. بيروت: تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة.
- أحمد فرج فرج. (1981). التحليل النفسي للأدب. مجلة فصول مجلد ١، عدد ٢، صفحة 26.
- الحسن اليوسي. (1981). زهر الأكم في الأمثال والحكم. المغرب: تحقيق: محمد حجي، دار الثقافة.
- النعمان عبد المتعال القاضي. (2005). شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام. مصر: مكتبة الثقافة الدينية.
- جلال الدين السيوطي. (1998). المزهري في علوم اللغة وأنواعها. بيروت: تحقيق: فؤاد منصور، دار الكتب العلمية.
- حسن الأسمرى. (2012). النظريات العلمية الحديثة، مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها - دراسة نقدية. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- حسين علي لوباني. (1999). معجم الأمثال الفلسطينية، ط1. بيروت-لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.
- رمزي إسحاق. (1942). علم النفس الفردي أصوله وتطبيقه. القاهرة: دار المعارف .
- سالم مرعي الهدروسي. (2008). خطاب الأمثال القديم عن العرب. مجلة اتحاد الجامعات العربية للأدب، مجلد 5، صفحة 105.
- ستانلي ادغار هايمان. (1958). النقد الأدبي ومدارسه الحديثة. لبنان: ترجمة: احسان عباس، دار الثقافة.
- سهير جرادات. (2011). الأمثال الشعبية- مخزون ثقافي للأمم وحياة الناس بعاداتهم وتقاليدهم. مجلة الدستور.
- شريف كناعنة. (2000). من نسي قديمه تاه: دراسات في التراث الشعبي والهوية الفلسطينية. فلسطين: مطبعة بوغوش.
- عادل العوا. (1946). مجلة المعرفة السورية. سوريا .
- عاطف عطية. (2001). المثل الشعبي العربي المصدر والمأل. مجلة الثقافة الشعبية، العدد 53.
- عائشة بالعربي. (1990). صورة الفتاة في الأمثال الشعبية: مقاربات. المغرب: سلسلة بإشراف عائشة بلعربي ضمن كتاب فتيات وقضايا، دار الفنك للنشر.
- عبد العزيز جادو. (1992). العقل اللاشعوري : دراسة نفسية. مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، عدد 101، صفحة 185.
- عبد الله الغدامي. (2005). النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3. المركز الثقافي العربي.
- عبد الوهاب المسيري . (1999). موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. مصر: دار الشروق.
- عز الدين إسماعيل. (2013). الأدب وفنونه - دراسة ونقد. سوريا: دار الفكر العربي.
- عزيزة السيد. (1982). صورة التراث الشعبي لدى المرأة ونماذج من الادب لشعبي: رؤية سيكوسوسيولوجية. مجلة العلوم الاجتماعية 1982م، مجلد 10، العدد 3، الصفحات 257-275.
- علي الوردى. (1996). خوارق اللاشعور. لندن: دار الوراق للنشر.
- عمر عاصي. (2022). النقد الثقافي الوجه الاخر للأدب. بيروت: دار الكتب العلمية.

- فاتن السكافي. (2018). معرفة النفس عند كارل كوستاف يونغ. المركز الديمقراطي العربي: المجلة الدولية للدراسات التربوية والنفسية : العدد الثاني.
- فاخر عاقل. (1988). معجم العلوم النفسية. بيروت: دار الرائد.
- مالك بن نبي. (1984). مشكلة الثقافة. سورية: دار الفكر.
- مجدي الهلالي. (2010). كيف نغير ما بأنفسنا. مصر: مؤسسة اقرا.
- محمد السهلي. (1996). موسوعة الأمثال الشعبية الفلسطينية. فلسطين: الاقصى للدراسات والترجمة والنشر.
- محمد عبد المنعم وآخرون خفاجي. (1980). قصة الأدب في الحجاز. مكتبة الكليات الأزهرية.
- محمد فؤاد جلال. (1988). مبادئ التحليل النفسي. مصر: مؤسسة هنداوي.
- مصطفى الهيتي. (1976). عالم الشخصية. بغداد: دار العروبة.
- موفق أيوب محسن. (2019). فلسفة القيم التربوية في اللاشعور الجمعي الموجه ضد المرأة. مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية: جامعة باننة 1 الحاج لخضر - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد السابع، صفحة 218.
- ميللر جان ألان. (1983). جاك لاكان بين التحليل النفسي والبنويّة. ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، الفكر العربي المعاصر، العدد 23، الصفحات 78-84.
- وزي بوخريص. (2004). صورة المرأة في الأمثال الشعبية المرأة في مؤسسة الزواج كنموذج. المغرب: مجلة فكرونقد.
- ولندزي هول. (1977). نظريات الشخصية. القاهرة: ترجمة: فرج احمد واخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر.
- يوسف الحوراني. (1994). جماليات الحكمة في التراث الثقافي البالي. لبنان: دار النهار.